مقدمة

إن للإقبال على بعض ألوان من الطعام والعزوف عن بعضها الآخر فى حضارة ما معانى تتجاوز حدود التسجيل التأريخى لهذه الحضارة ، وتتناول البيئة والاقتصاد ، وتخوض أعماق القيم الدينية والروحانية ، وتتصل بالنظرة إلى الكون وتصور تركيبه اللذين سادا عهدها ، وهذه المعلومات لا يستطاع معرفتها إلا بتحليل ما كدسه المؤرخون من خلال دراسة آلاف السنين الماضية وما سبق الحقبة الطويلة التى ينحصر فيها إرثنا القابل للسَّبْر والتحليل .

وإننا - إذْ نلاحظ رسوخ الرواسب التى خلفتها العادات القديمة والتقاليد العتيقة التى كثيراً ما ظلت متحجرة بعد زوال الدوافع إليها ونسيان عللها ، وعلى تعاقب النظريات التى ابتكرت لتفسيرها على مرّ السنين وفقاً للتطور الفكرى الذى قارنها .

وإذْ نعترف بعلاقة أغلب الاتجاهات الشائعة فى عالمنا الحالى بالديانات السماوية الثلاثة السائدة فيه ، وهى الإسلام والمسيحية واليهودية .

ثم إذْ نلاحظ نشأة هذه الديانات بلا استثناء فى رقعة صغيرة من البسيطة هى التى تسمى بالشرق الأدنى ، بل إذْ نظرنا إلى توارث العقائد والشعائر بعضها عن بعض - إننا فى هذه الحالة يتبين لنا أهمية إدراك نشأة العادات الخاصة بما يؤكل وبما لا يؤكل ، هذا إذا ابتغينا تبيان عقلية إنسان القرن العشرين .

وبما أن تجميع كل المعلومات المفيدة عن بلاد الشرق الأدنى بأكملها مُحال فى نطاق هذا المؤلف المحدود - سنقصر أكبر جزء من بحثنا على شعوب مصر القديمة ، وعلى ما ورد عن العبرانيين وعرب الجاهلية ، وهى الشعوب التى توفر لنا أكبر قدر من المعلومات ، مع بعض الإضافات عن البلاد المجاورة أو المتصلة بها ، أو عن بلادٍ تكون عبرة للدارسين ؛ عسانا نوفق إلى رسم صورة عامة لا تنقصها الدقة ، عن نشأة تلك العادات وتطورها على مرّ القرون والحضارات .

وإننا حين نبادر بمثل هذه الدراسة إنما نسعى إلى تحقيق غايات عدة ليس أقلها أهمية معرفة الإنسان للإنسان : فمعرفة طعام قوم سواء أكانوا من سكان الكهوف أم من رواد ناطحات السحاب إنما هى إحدى السبل إلى معرفة طائفة من العناصر تجمع بين علوم التاريخ ، ومعرفة الأساطير ، والمذاهب والجغرافيا الاقتصادية والمناخ والفن والطب والآثار .

يتاح عندئذ الاقتراب إلى أسمى هدف يتعين على المؤرخ ، ذلك الهدف الذى عبر عنه سقراط الفيلسوف الإغريقى - بنصيحة أسداها إلى تلاميذه لتكون لهم منهجاً ونبراساً ، تلك النصيحة التى استحالت إلى شعار كتب على معبد دلفى وهى : « اعرف نفسك »[1] . ولعل هذا الشعار يذكرنا قولا آخر مأثوراً وهو : « قل لى : ماذا تأكل أقل لك من أنت ؟ »

ومن ثم فإن مثل هذه الدراسة تمهد لنا إلقاء الضوء على عاداتنا المتقلبة من زاوية جديدة ، وتقرب لنا فهم التقاليد والأوهام الأجنبية التى تبدو لنا غريبة أو منفرة أو غير معقولة .

وفى عالمنا الراهن الذى انفجر عدد سكانه انفجاراً مخيفاً ، والذى اتسم بعدم التساوى فى توزيع الثروات الغذائية ، وبكثرة المجاعات ونقص التغذية فى بعض البلاد مع انتشار أمراض الاكتظاظ فى بلاد أخرى – فى عالمنا هذا - قد يتيح إدراك أصول هذه التقاليد إزالة العوامل التى تعوق توسيع الرقع لموائد بعض الشعوب المكبلة بقيود عتيقة عازفة عن التمتع بما جاء به الخالق الكريم لأسباب وهمية ومخاوف زائفة .

ولذا فإننا بعد أن اقتبسنا كلمة سقراط تروقنا كلمة منسوبة إلى كاتب إغريقى لاحق هو مناندر الأثينى الذى علق على كلمة سقراط بكلمته المأثورة : « قد يكون مبدأ (اعرف نفسك) مبدأ محموداً ، ولكنك لا تضمن سلامته فى جميع المواقف ؛ فإن منها ما يفضل معه قول : اعرف غيرك ! » .

هذا إننا نعيش فى تناقض عجيب ربما وصفه المثل العامى : «باتت جعانة وجوزها خباز ! » إننا نسرف فى استهلاك عدد محدود من الثروات بدون مبالاة أو تخطيط ، ثم نشكو قلتها على حين تجهل أو نتجاهل عشرات أمثالها لانفكر فى استغلالها ، بل نصرّ على نبذها خضوعاً لعادات عقيمة أو لأسباب عاطفية وهمية !

لقد سخر لنا الخالق الكريم الملايين ولم يحرم إلا أربعة :

(ألم تروا أن الله سخّر لكم ما فى السموات وما فى الأرض وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة . .) سورة لقمان / ٢٠ .

مازالت القبائل التقليدية تنعم بهذه الكثرة ، وتتمتع بصحة جيدة برغم تأخرها الفنى ، فقد كتب جريفتى[٢] أن سكان بوتسوانا يتغذون بنحو من مائة نوع من

الأصناف الأليفة ، بالإضافة إلى مائتين وعشرين نوعاً من الأطعمة الوحشية ، منها : الحيوانية كالإبل والسلاحف والثعالب على أنواعها ، والنمس والأرنب الوحشي والقطط الوحشية والجاموس والقنفذ والغزال والظبي والضبع وابن آوى وبقر الوحش والماعز الوحشي والسنجاب والدب والذئاب والأسماك والرباح والعرس والوبر والعلند والديكر والظراف والفيل ووحيد القرن والضفدع والوعل والجراد والنمل والزنبور والدود وحشرات أخرى وما يُربى على ثلاثين نوعاً من الطيور الوحشية .

ومنها النباتية وهى تشمل الخضر الورقة والجذور والأبصال والثمار والأصماغ والقشور والفطريات والزهور .

غير أن عدد المأكولات ينحصر مع المتمدين لجهل السلالات الحديثة بالمأكولات الوحشية وزيادة الوقت الممضى فى المدرسة والذى كان يمضى فى الغابات حتى إننا إذا أمعنا النظر فى طعامنا وجدنا ٩٠٪ منه إنما يعتمد على أربعة أصناف من اللحوم ، هى : البقر والغنم والدجاج والسمك ؛ وعلى ستة حبوب ، هى : القمح والشعير والأذرة والدخن والفول والعدس وعلى نحو من عشرة أصناف من الخضر ومثلها من الفواكه .

ولنذكر مما لا يؤكل فى بلادنا وإن كان يوفر طعاماً مفيداً ورخيصاً يروق غيرنا – أن الصينيين يستحسنون الكلاب والقرود والطحالب وعش الخطاف ، وأن بعض الأفريقيين مولعون بالحشرات والكلاب ودهن النمل وبأصناف لا ندركها من الثمار والجذور ، وأن المكسيكيين يتهافتون على أكل الكلاب ، وأن العرب يعدّون الجراد والضب أكلا شهياً ، وأن صحارينا تأوى ملايين القواقع يعزف البدو عن أكلها مع ما يعانونه من نقص الزلاليات ، لعلنا نجد فى هذا عظة وعبرة .

وبما أننا فى دراستنا سنعتمد على آثار عريقة وروايات قديمة – علينا أن نذكر

بعض التحفظات التى - لو أهملناها - أضاعت قيمة تفسيراتنا ، فى حين أنها - إذا سقناها - أضافت دقة إلى دراستنا .

وتلك التحفظات يمكن ذكرها على الوجه الآتى :

١ - خطر قياس الأحداث القديمة بمعايير متخذة من سيكولوجيا إنسان القرن العشرين أو ثقافته أو خبرته .

٢ - خطأ اعتبار عادات وتقاليد دولة يمتد تاريخها عبر ثلاثة آلاف سنة وهى مدة تساوى ضعف التاريخ الهجرى - خطأ اعتبار هذه العادات والتقاليد ثابتة طوال هذا التاريخ : ذلك أن الاختلاف بين حياة معاصرى (مينا) موحد القطر المصرى ، وبين رعايا البطالمة قد يوازى على صورة ما الفارق بين حياة عربى الجاهلية ، وبين حياة حفيده ساكن أحدث العواصم العربية .

٣ - خطأ الأخذ بعادات حقبة معينة فى دولة ما على أنها تمثل العادات العامة لكل سكان هذه الدولة ، ومن ثمّ خطورة إهمال الفوارق الناتجة عن اختلاف الطبقات الاجتماعية وعن تباين البيئات كحسبان غذاء الفلاحين قياساً على غذاء البدو أو مآدب أثرياء المدن ، أو تعادل طعام سكان السواحل وغذاء سكان الواحات والصحارى ، أو إطلاق ما اعتاده أتباع الإله (أوزيريس) على أتباع (ست) ؛ كما سنرى فيما بعد .

٤ - عند بناء استنتاجاتنا على أساس ما كشف عنه من بقايا نباتية أو حيوانية فى خلال عمليات التنقيب خطورة إهمال العوامل التى أدت إلى بقاء تلك الآثار ، أو التى دفعت إلى إيداعها فى القبور أو المعابد حيث تم الكشف عنها - فإن هذه البقايا - وإن بقيت فى أرض مصر بفضل جفاف تربتها وجوها - من الكثرة والتباين مالا يجعل لها مثيلا ، غير أنها لاتشمل سوى جزء ضئيل مما كان يؤكل عندئذ ، وإلى هذا فإن القدر الباقى يختلف مع اختلاف قدرته على البقاء وتحمله

عوامل التلف ، ولذا فإن البقايا الحيوانية لاحتوائها عناصر صلبة كالأسنان والعظام - أقدر على البقاء من المواد النباتية . والنبات المركب من ألياف أو خشب كالبذور والجذور أصلح للبقاء مما لا يحوى إلا جرماً طرياً كالفواكه والثمار . وأخيراً فإن مجرد ورود مادة - لا يقيم برهاناً قاطعاً على استخدامها طعاما : فقد يكون الحيوان المدفون من بهائم النقل ، أو من الحيوانات المؤلفة ، أو من الحيوانات الأليفة ، وقد يكون استعمال النبات لمجرد الزينة

٥ - اتخاذ الحجة الغيابية برهاناً : كاستنتاج عدم وجود ظاهرة ؛ لأنها لم تذكر ، أو لأنها لم يكشف عنها بعد ، وهذا النوع من الأدلة يعده علماء المنطق أضعف البراهين .

٦ - تغير معنى اللفظ الواحد على مرّ السنين ، أو تباين مدلوله فى البلاد المختلفة : ولنضرب لذلك مثالا من العهد القديم ، هو استعمال هيردوت لفظة (زيا) بمعنى الحنطة ، وهى الآن تطلق على الأذرة وفى العصر الراهن اختلاف مؤدى (الخوخ) أو (البطيخ) أو (العيش) فى بلاد متجاورة تنطق بالضاد . ونضيف إلى هذه الصعوبة عدم تقسيم القدامى الفصائل الحيوانية أو النباتية فى الدقة التى نراها ضرورية اليوم .

٧ - عوامل خاصة بالمؤرخ : إن أغلب الذين أرخوا للشرق الأدنى كانوا من المسافرين الإغريق وعلى رأسهم هيردوت وقبل أن نأخذ بحقيقة رواياتهم - علينا أن نتحفز لها لأسباب ناتجة عن طبيعة صلاتهم بأهل البلاد التى زاروها ، أو بنزعاتهم الخاصة ، أو باهمالهم تسجيل بعض الملاحظات وتركيزهم على ما بدا لهم غريباً أو طريفاً :

(ا) إن المركز الاجتماعى الذى يتمتع به المؤرخ الجائل يحدد الطبقات التى يسمح له بمعاشرتها ، والمناطق التى يزورها ، والمرافق أو المعاهد التى يتفقدها ، ومن

ثم نوع الخبرة التى يجنيها . وجدير بالذكر أن أكثر المؤرخين كانوا من السياح الأثرياء ، أو كانوا ينتمون إلى فئة من فئات الكهنة أو الفلاسفة ، فكانت أغلبية الأوصاف التى أوردوها فى كتاباتهم تعكس بطبيعة الحال عادات الطبقات المقابلة لهم وتقاليدها ، كما أنها صنفت لمتعة مستمعين من الطبقات نفسها وإثارة فضولهم ، فألحت على النواحى الغريبة ، وربما تجاوزت الحقيقة فى تقديرها لها .

(ب) ومن جهة أخرى فإن علماء المصريين وكبارهم كانوا يحتقرون هؤلاء الزوار ، ويعدونهم دون مستواهم ، ويعزفون عن لقائهم على حسب ما ذكر هؤلاء المؤرخون أنفسهم . ومن أوقع ما ورد من هذا القبيل قول أحد كهنة هليوبولس (عين شمس) إلى (صولون) مشرع الإغريق وواحد من حكمائهم السبعة : « ياصولون ، إنكم لا تزالون أطفالا ! لا يوجد شيخ (عالم) من بين الإغريق »[٣] ، ويؤكد كانيادس هذه النظرة فى القرن الثانى - الثالث ق . م : فقد جاء عن لسانه : إن الكهنة لا يختلطون بغيرهم إلا فى الأعياد الرسمية ؛ أما فى الأيام الأخرى فإن الوصول إليهم يستعصى على أى امرئ يرغب فى محادثتهم[٤] .

وقد عرف العرب ستار السرية الرهيبة الذى كان يسدل على العلوم المصرية ، وصعوبة رفعه : فقد روى ابن أبى أصيبعة[٥] ما واجه فيثاغورس من المحن عندما توجه إلى الديار المصرية للاطلاع على قبس من علوم كهانها ، قال :

« اشتاق فيثاغورس إلى الاجتماع بالكهنة الذين بمصر ، فابتهل إلى فولوقراطس أن يكون له على ذلك معيناً ، فكتب إلى أماسيس ملك مصر كتاباً يخبره بما تاق إليه فيثاغورس ، ويعلمه أنه صديق من أصدقائه ، ويسأله أن يجود عليه بالذى طلب وأن يتحسن عليه ، فأحسن أماسيس قبوله وكتب إلى رؤساء الكهنة بما أراد ؛ فورد على أهل مدينة الشمس ، وهى معروفة بزماننا بعين شمس بكتب ملكهم فقبلوه قبولا كريما ، وأخذوا فى امتحانه زماناً ، فلم يجدوا عليه نقصاً ولا تقصيراً . فوجهوا

به إلى كهنة منف ؛ لكى يبالغوا فى امتحانه ، فقبلوه قبولا على كراهية ، واستقصوا امتحانه فلم يجدوا عليه معيباً ولا أصابوا له عثرة ، فبعثوا به إلى أهل ديو سبولس ؛ ليمتحنوه ، فلم يجدوا عليه طريقاً ولا إلى إدحاضه سبيلاً لعناية ملكهم ، ففرضوا عليه فرائض صعبة مخالفة لفرائض اليونانيين كيما يمتنع عن قبولها ، فيدحضوه ويحرموه طلبه ، فقبل ذلك ، وقام به ، فاشتد إعجابهم منه ، وفشا بمصر ورعه حتى بلغ ذكره أماسيس فأعطاه سلطاناً على الضحايا للرب تعالى وعلى سائر قرابينهم ولم يُعطَ غريبٌ ذلك قط .

(جـ) اضف إلى هذا صعوبة اتصال الزائر بالشعب اتصالا مباشرا لاختلاف اللغة ، وإن كان معروفاً أن مدارس للترجمة لتعليم الأغريقيين اللغة المصرية أسست فى مصر منذ عهد الأسرة الثامنة عشرة[٦] إلا أن أكبر الظن أن هؤلاء التراجمة كانوا يجهلون غوامض الأسرار الدينية ، وأنهم لم يعتادوا التصريح إلا بما يوافق كرامتهم الوطنية ، أو ما يثير إعجاب (زبائنهم) كما يفعل اليوم (التراجمة) فى المواقع السياحية . وأنهم كانوا يتكتمون ما كانوا يعدونه مخجلا ، أو ما يظنونه مثيراً للسخرية من لدن الزوار ، أو عدم تفهم الزوار حقيقته ، أو ما كانت السرية التى كانت تغشى كل الأمور الدينية لا تُسيغ الإجهار به .

(د) إهمال المؤرخ أو مرشده ذكر ما يظنه مفهوماً بداهة : كعدم ذكره الماء من بين المشروب أو الخبز من بين المأكول .

٨ – خطورة قبول التفسيرات السهلة التى تبتكر من آن لآخر دفاعاً عن عادات قديمة أو تعصباً لها ، أو إشباعاً لغريزتنا السببية التى لا تستريح إلا بابتداع تفسير ، ولا ترضى منه إلا ما أُلبِسَ لباساً ذا مظهر تعقلى يروق من يدعى ثقافة علمية دون تحقيق دقيق .

٩ – وهنا علينا أن نبين سبب استنادنا إلى حجج متخذة من روايات وأساطير

يجوز الشك فى حقيقتها التاريخية . هذا إن لكل رواية شكلا وموضوعاً .

والشكل إنما هو ثوب جميل طرزته مخيلة الراوى مستمدة خيوطها من غرائزه وميوله وتكوينه وبيئته وإرثه ومن كل عنصر ذاتى أو خارجى كيّف ذهنه وحدد أهواءه ومشاعره .

أما الموضوع فهو مستمد : إما من الذاكرة الجماعية التى توارثت تاريخ الأسلاف - وإن لم يخل من التحريف - وإما أن يكون من خلق الراوى ، فلا يخلو اختياره أو ابتداعه من التأثيرات التى حددت هى نفسها الشكل . وعليه فإن الأسطورة إذا ورثها الشعب وراقت عينيه ، ورددتها السلالات المتتالية - إنما هى مرآة لذهن هذا الشعب وترجمة لفكره ، يتيح تحليلها إدراك أساليب تفكيره .

١٠ - وختاماً يجب أن نعترف بازدواج تأثير العنصر الواحد وباختلاف اتجاهه على حسب الظروف : كأن يكون حكم التقديس تارة الإقبال تقديرا للشىء المقدس ، وأطواراً النهى احتراماً له ، وبالعكس : أن يكون حكم العداوة والنفور الإحجامَ عن اشمئزاز أو النحر للانتقام ، ويمكن وضع العناصر ونفوذها فى الجدول التالى :

الاتجاه	أسباب إيجابية	أسباب سلبية
السماح	التكريم استساغة الذوق الوفرة	الانتقام
النهى	التقديس الضرر الضحى التمييز عن حضارة مجاورة أو معادية مجاملة قوم فاتح أو محاور أو صديق اعتبارات دينية عوامل موسمية	النفور عن إله معاد عدم استساغة الطعم عدم الوفرة وخشية اندثارها اعتبارات دينية النـــدرة